مصطلحات العقيدة في المعجمية العربية قديما وحديثا (٢/١)

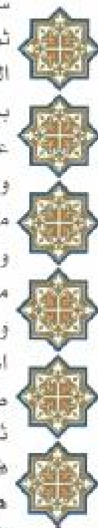
لا يجادل أحد في أن الإسلام منذ بداياته اعتنى عناية فائقة بتصحيح النظرة إلى الله سبحانه لاسيما في البعد المتعلق بتوحيد الألوهية، أي في بعد كونه مختصاً وحده سبحانه بالعبادة والاستعانة، وأصبح تقييم الإسلام أولا وقبل أي شيء محكوما بالتغيير الجبار في هذا الميدان، بعد انحرافات غير مَرْضية طالت النظر إلى الخالق سبحانه.

وقد مر التعبير عن هذه الحقائق بمراحل مختلفة، سميت قديما باسم الإيمان، بمعنى أن المؤلفات القديمة التي حملت عنوان «كتاب الإيمان» كانت كتبا تناقش مسائل ما سمي بعد باسم علم الاعتقاد أو علم العقيدة، ومن أشهرها وأقدمها كتاب «الإيمان» لابن منده.



د. خالد فهمي - مصر

ثم عُبِّر عن هذا العلم في وقت لاحق باسم علم الوحدانية أو علم التوحيد، وربما شاع التعبير عن مسائل علم العقيدة باسم الوحدانية، لأنها أهم مقاصد الرسل جميعا، ولأنها وحدها كانت هي العقيدة المهجورة المكفور بها من أكثر الناس، على ما يقرره الدكتور محمد بن عبد الله دراز، رحمه الله، في كتابه المانع «المختار من كنوز السنة النبوية، شرح أربعين حديثا في أصول الدين» طبعة دار العلم، الكويت والقاهرة سنة ١٤٢٥هـ= ٢٠٠٤م ص ٩٠١.



ثم عُبِّر عنه وعن مسائله باسم علم أصول الدين ثم باسم علم الكلام، وفي هذا الطور برزت قضية العناية بإثبات العقائد الدينية على الغير عن طريق الحجج ودفع الشبهات، وهو الذي استقر عليه العمل في مناطق مختلفة من خريطة العلم الشرعي قديما وحديثا، على ما يظهر من مراجعة مقدمات مصنفات تصنيف العلوم عند المسلمين ومعاجم مصطلحاتها من مثل كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي (ت ١١٥٨هـ) طبعة مكتبة لبنان سنة ١٩٩٦م (٢٩/١).

ثم شاع واشتهر دراسة مسائل التوحيد في تفرعاتها المختلفة تحت اسم جامع هو اسم «علم العقيدة»، وربما كان سبب شهرة هذا العنوان راجعا إلى استعمال أبي جعفر الطحاوي (ت ٣٢١هـ) لهذه اللفظة في عنوان كتابه الأشهر في هذا المجال.

إخلال المعاجم

ونحن نفسر إخلال المعاجم العربية اللغوية القديمة بإيرادها لأسباب عديدة منها:

أ - شهرة اللفظة، وشهرة معناها على ما نراه من استعمال الطحاوي وشراحه وقد كانت المعاجم القديمة مشغولة بالغريب غير المألوف.

ب - أنها جاءت على وزن قياسي والمعاجم القديمة في العربية لم تكن تشغل بالصيغ القياسية فرارا من التضخم. وأصبحت هذه المفردة علما على دراسة الإلهيات والنبوات والسمعيات.

وقد تتبع د. عبد الصبور شاهين مسيرة الكلمة في المعاجم العربية القديمة في مقال قديم له بعنوان «حول كلمة العقيدة» كان نشره بمجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٣٨٧هـ= ١٩٦٧م ع ٢٢ ص (٦٨-٧٤)، وعلى الرغم من مخالفتنا ما توصل إليه من عدم قدم استعمال الكلمة في باب المصطلح العلمي، على ما مثلنا به من أمر عنوان كتاب أبي جعفر الطحاوي الظاهر على مخطوطات الكتاب التي اعتمدت وصورت في أكثر من طبعة.

المهم أنه توصل إلى بعض ممن عني بإيراد الكلمة عن المعجميين القدامى من مثل الفيومي المصري (ت ٧٧٠هـ) صاحب المصباح المنير، والجرجاني (ت ٨١٦هـ) صاحب التعريفات.

وأعاد شاهين نشر هذا المقال في كتابه «عربية القرآن» مرتين فيما بعد من دون إضافة تذكر، الأولى في مكتبة الشباب بالقاهرة سنة ١٩٩٩م والثانية بمكتبة النافذة بالقاهرة سنة ٢٠٠٧م.

مسارات الاهتمام

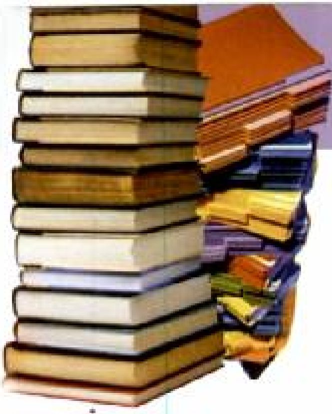
و الحق قاض بأن ثمة عناية جيدة بمصطلحات هذا العلم تجلت قديما من خلال مسارات ثلاثة هي:

١- في كتب العقيدة القديمة، أيا ما كان عنوانها، وقد أخذت هذه العناية شكلين هما:

آ- في فصول قصيرة في مقدمات هذه الكتب، وهو أمر نادر قليل.

ب- في مقدمات أبواب هذه الكتب، وهو الشائع الفاشي، على ما تجد في مقدمات أبواب كتاب أبي جعفر الطحاوي وأصول الدين لابن طاهر التميمي البغدادي (ت ٤٢٩هـ) وتبصرة الأدلة في أصول الدين للماتريدي (ت ٥٠٨هـ) والإيضاح في أصول الدين للزغواني (ت ٥٢٧هـ) وأبكار الأفكار في أصول الدين للآمدي (ت ٦٣١هـ).

٢- في المعاجم اللغوية المتأخرة من أمثال: لسان العرب لابن المنظور، والقاموس المحيط للفيروزابادي، وتاج العروس، للمرتضى الزبيدي، باعتبار أن فيها جانبا موسوعيا كثيرا ما عني ببيان بعض معاني المصطلحات، ومنها مصطلحات علم العقيدة، ومن أمثلة ذلك قول اللسان (وحد)



٣/٤٥٠طبعة صادر بيروت (١٩٩٠ م)؛ «التوحيد: الإيمان بالله وحده لا شريك له»، ولا شك أن هذا التعريف اصطلاحي خاص بعلم العقيدة.

ويقول في (وحد ٣/٤٥١): «الواحد: من صفات الله تعالى. معناه لا ثاني له». وهو لا شك معنى حادث بعد مجيء الإسلام على الذي شاع واشتهر من أمر شركية الحياة العربية.

٣- في معاجم المصطلحات العربية، وهي المعاجم التي انشغلت بجمع المصطلحات التي ظهرت بعد نهضة المجتمع الإسلامي بأثر من آثار الإسلام العظيم وقد تجلت عناية هذا الفرع بمصطلحات علم العقيدة في اتجاهين هما:

أ- معاجم خاصة بمصطلحات علم العقيدة باعتباره من مشاغل علم الكلام أو أصول الدين على ما مر بنا في المدخل. ومن أشهر هذه المعاجم:

■ الحدود في الأصول، لابن فورك الإصبهاني ت (٤٠٦هـ) تحقيق محمد السليماني دار الغرب بيروت ١٩٩٩، ومن أمثلة المصطلحات التي عرفها وعلق عليها «التوحيد ص ١٠٧ ورحمته سبحانه ص١٠٠ والكرامة ص ١٣٠ والكفر ص ١٠٩ والكسب ص ٨٥ والمعجزة ص ١٢٠ إلخ) وهي ولا شك مصطلحات تنتمي إلى علم العقيدة، موزعة على أبوابه الكبرى: الإلهيات والنبوات والسمعيات.

■ الحدود والحقائق، للشريف المرتضى (ت ٤٣٦هـ) بعناية السيد أحمد الحسيني والسيد مهدي رجائي، طبعة قم إيران سنة ١٤٠٥هـ ضمن رسائله ٢/٢٥٩-٢٨٩ومن أمثلة المصطلحات الاعتقادية المشروحة ما يلي: «الإبداع ٢٦١/ الإله ٢٦٣/ والباقي ٢٦٤/ والتحدي ٢٦٦/ والجزاء ٢٦٧/ والحي ٢٦٨/ والدين ٢٧٠/ والعصمة ٢٧٧/ والقديم ٢٧٩/ والملة ٢٨١/ والمغفرة ٢٨٣/ والواحد ٢٨٨ إلخ».

عقيدة جزئية

ويمكن أن تعد - بل هي كذلك - معاجم أسماء الله الحسنى معاجم مصطلحات عقيدة جزئية في موضوعها، لأنها تعرض بالبيان لمعاني مصطلحات هي من أكثر مسائل علم العقيدة، مما يدخل في باب الأسماء والصفات، وهذه المؤلفات كثيرة جدا منها ما يلي: تفسير أسماء الله الحسنى، للزجاج (٣١١ هـ) أحمد يوسف الدقاق، دار الثقافة العربية ١٩٧٥م، والتحبير في التذكير، للقشيري (٤٦٥هـ) د. إبراهيم بسيوني، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٦٨م ولنمثل بمثال واحد من أقدمها يثبت معالجة هذه الأسماء من باب علم العقيدة، لا من باب اللغة، يقول الزجاج في تفسير أسماء الله الحسنى ص ٦٠ فقرة ٧٦: «الظاهر: هو الذي ظهر للعقول بحججه، وبراهين وجوده وأدلة وحدانيته، هذا إن أخذته من الظهور، وإن أخذته من قول العرب: ظهر فلان فوق السطح: إن علا... فهو من العلو، والله تعالى عال على كل شيء وليس المراد بالعلو ارتفاع المحل، لأن الله تعالى يجل عن المحل والمكان». وفي النص علامات واضحة جدا تجعله معجما في المصطلح الاعتقادي، خاصا بالعناية بواحدة من أمس المسائل رحما بهذا العلم وهو التعريف بأسمائه الحسنى وصفاته العلى.

ب- في معاجم المصطلحات العامة (وهي المعاجم التي اعتنت بجمع مصطلحات العلوم المختلفة وتفسيرها وبيان معانيها) من مثل:

■ مفاتيح العلوم، للخوارزمي الذي صنع بابا كاملا لمصطلحات الكلام من ص ٢٢- ٤١ من طبعة فلوتن، القاهرة ٢٠٠٤م.

■ مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، المنسوب خطأ للسيوطي الذي صنع بابا كاملا لمصطلحات الاعتقاد ص ٧٣-٧٥ من طبعة د/ محمد إبراهيم عبادة القاهرة ٢٠٠٤م. ومن المصطلحات التي عرف بها وشرحها ما يلي: «الإيمان/ والاعتقاد/ والتوحيد/ والقضاء/ والقدر إلخ».

المصطلحات العامة

كما تناثرت العناية بمصطلحات العقيدة في معاجم المصطلحات العامة التي اتبعت المناهج الهجائية الألفبائية، كالتعريفات للجرجاني (٨١٦ هـ) والتوقيف على مهمات التعاريف للمناوي (١٠٣١هـ) والكليات للكفوي ت١٠٩٤هـ وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي ودستور العلماء لأحمد نكري.



ويتضح مما سبق حجم العناية التراثية بمصطلحية علم العقيدة الإسلامية لدرجة تبدو كبيرة جدا، لم تجد إلى الآن من يجلي أمرها. فبين نشأتها المبكرة التي ظهرت بسبب من خدمة هذا العلم وضبط مفاهيمه، لاسيما بعد تفشي المقولات الاعتقادية الفاسدة في أوساط الفرق المختلفة، مما أصبح معه أمر العناية بضبط مصطلح هذا العلم وتحريره مطلبا ملحا وضروريا. هذه العناية القديمة في تفريعاتها المتنوعة والكثيرة، لم تجد من يستثمرها في العصر الحديث!